أحلام وسراب

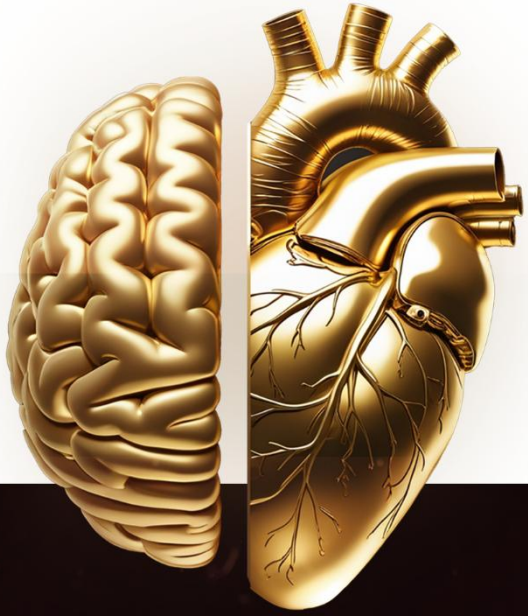

محمد يعقوبي

دار البسمة للنشر الإلكتروني

أحلام وسراب

اسم الكتاب: أحلامٌ وسراب

اسم الكاتب: محمد يعقوبي

نوع العمل: قصة

الرقم الدولي EBIN: 16-1-392-250712

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2025م / 1447هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Darbassma1@gmail.com

المملكة المغربية

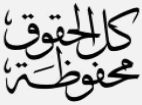

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأي صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو كان، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

أحلام وسراب

قصة

محمد يعقوبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل تائه ..

اتبع هذا الخيط...

دخلت البيت وأنا مصفرٌّ الوجه شاحب، فبادرني أخي –وكعادته معي– بالمزاح الثقيل والتهكّم المستمر، يجد في ذلك مرحا وسعادة رغم أني لا أستظرفه منه في كثير من الأوقات:

– ما الخطب؟

– قتلتني.. أجبته وأنا أكتم شيئا في حلقي، ولم يكن ذلك الجواب ردًّا عليه، بقدر ما خرج من حديثي مع نفسي فوافق سؤاله.

– قتلتك؟ من قتلتك؟ وكيف قتلتك؟ توقف عن إفزاعي.. تساءل مستغربا جوابي، ولم يبدأ بهجومه السمج، والذي كنت أتوقعه في أي وقت لكن أخبرته:

– عند عودتي، لاحظت نافذة على جانب الطريق لمنزل من طابق أرضي يوجد غير بعيد عنّا، قريب من حي لمحال، لو وصفته لك لعرفته بين حيّنا وحي لمحال بعد مسجد الودادية، منزل منفرد عن الحي، من أولَ المنازل التي بنيت في تلك التجزئة وبقيت باقي القطع الأرضية المجهزة للبناء يملؤها الأعشاب والشوك، ولهذا المنزل حديقة صغيرة فيها بعض شجرات الليمون والزيتون وسور صغير يحيط بتلك الحديقة، والنافذة قريبة من الأرض لعلك عرفت المكان؟

– نعم أعرفه... ما علاقة هذا بقتلك؟

– سأجيبك. لا تعجل عليَّ.

لمّا كنت مارًّا من هناك لمحت من وراء الزجاج امرأة...

كانت تصفّف شعرها، دفعني الفضول أن اقتربت من النافذة، لم أكن أراها إنما كنت أرى خيالها الذي ينطبع على الستائر..

حاولت الاقتراب أكثر لأتعرف على ملامحها، لعل صورة واضحة لها تظهر من جنب الستار، أردت أن أقترب من النافذة لكن ترددت، إذا بها تنظر باتجاهي ففزعت، قلت في نفسي: أحست بي؛

لأنها أطالت النظر إلى جهتي... أسرعت للاختفاء، ثم بقيت أراقبها من بعيد، إنها لا تراني من هنا، أنا متأكد من ذلك وهي لم تفتح النافذة.

يبدو عليها الاطمئنان، فقد جلست على كرسي وعادت لتصفيف شعرها ثم فجأة قامت وتقدمت نحو النافذة، قلت في نفسي ستفتحها!! أرجو ذلك.. هيا، أرجوك! أرجوك افتحي! يا خيبتي تقدمت إلى النافذة وخطّت عليها كلمات..

ظننت أنها كتبت شيئا، ثم قلت: هل خطر ببالك أنها تكتب لك رسالة؟ يا لك من أحمق! لا أدري ما الذي حصل لي حتى هبطت عليَّ خيالات وهلوسات، وأعطتني مبررات لكل ما أقوم به، وأخذت

في اتباع خاطر يجرجرني أينما شاء، فأنا منذ أيام تقريبا أراقبها وأحياناً لا تظهر فأنصرف، واليوم رأيتها وهي تكتب أيضًا على زجاج النافذة، قلت:

سأقترب لأعرف ما كتبت..

لا أستطيع أن اقرأ بالمقلوب سأحاول..

فخ خخ وورة بنفنفـــ سـ بنفسجي!!! آه فخـــورة بنفسي...!! ماذا تقصد؟

تبدو جميلة وتهتم بجمالها فهي لم تترك المرآة.. يا إلهي ها هي تعود إلى النافذة، سأختفي هنا وراء الشجرة هذه المرة..

ماذا تكتب؟

ديـــن دنيا آه دنيا غرو غرور، آه فهمت دنيا غرور.

ما الذي تقصد؟

بقيت أنظر إليها، في كل مرة تغير ما تكتب، كلما جلست هنيهة تقوم لتكتب عنوانا أو مثلًا، وأنا في كل مرة أحاول أن أترجم الشفرات، كأنها رموز مورس موجهة لي.. هممت أن اقترب أكثر لأراها فقد مست شغاف قلبي..

هل أطرق النافذة؟

هل أدفعها برفق وأرى من خلالها؟

جلوسي طال أمام هذه الدّفلى أو داخل أغصانها الكثيفة التي تسترني عن المارة على قلّتهم، وَالطريق خارج المدينة ولا يمر من هناك كما تعلم إلا من يقصد البادية، أما بالليل فلا يمر من هناك إلا نحن أو جيراننا من أهل هذا الحي..

كل ليلة رغم البرد الشديد أحيانَا، آتي إلى قُبالة البيت وأنظر إليها وهي جالسة بعد أن يستر الظلام المنطقة، وهي تصفف الشعر وأحيانًا تضفّره وأحيانًا تعقصه وأحيانًا تحلّه وتتركه كأنها تستعد بهذا للنوم.

كانت كلّما نظرت من ناحية النافذة يهتز قلبي يغمرني شعور أن آتيها وأطرق عليها النافذة.

ومرة كاد ينشق قلبي نصفين حين اقتربت أكثر، فلم ألاحظ إلا وهي أمام النافذة كتبت: (تعال تعال).

يا ويلي! إنها تناديني منذ اليوم الأول، وأنا لم أفهم، ثم عادت إلى كرسيِّها، يا لجمالها! يا لقدّها الممشوق!

يبدو أنها ليست سمينة كثيرا، الآن وقد قالت ما قالت سأفتح النافذة...

لكني لست متأكدًا أنها تقصدني،

هل ستكتب شيئًا آخر بعد قليل؟

سأقترب لأعرف!

اقتربت بحذر حتى كادت يدي تصل إلى النافذة هل أدق؟

هل أدفعها؟

انتظرت قليلًا، بقيت متأرجحا هل أتقدم أم أتأخر؟

نظرت إلى النافذة ذات الإطار الأزرق قلت: الآن يجب أن أُقرر يجب أن أكون شجاعًا،

ماذا سيحدث؟

ربما هي تنتظرني منذ زمان،

يا لغبائي!

وفجأة بعد أن غفلت عنها قليلًا وأنا أتابع شخصا يمرُّ بجانبي دون أن يلحظ وجودي في مخبئي، انطفأ النور ...

هل تعمدت ذلك؟ ربما هي تنتظر! لا بد أن أزيح الشك، سأدفع النافذة.. مددت يدي وأنا أرتجف بشدة، أسمع دقات قلبي بأذني، كاد أن ينفجر خوفًا وترددًا وحيرة، أعلم أنك مصدوم ممَّا أقول، وأعلم أني تجاوزت فعل اللصوص أو نزلت إلى أدنى مستوى، ولكن دعني أُكمل دون أن تقاطع استرسالي، فلقد أحسست أن أنفي كان فيه سلسلة ناعمة تقودني إلى السلوك القبيح الذي أعرف أنه قبيح لكن أردت الاقتحام حبًّا وطواعية، حبًّا في المغامرة وطواعيةً لنفسٍ جرَّها الهوى ودلاها، لم أفعلها من قبل نعم، ولم أتخيل نفسي يوما أني سأفعلها لكن اليوم هبطت عليَّ هذه الفكرة من محلٍ أرفع، وكأني أردت تجربة شيء مخالف تماما لأخلاقي وتربيتي، لكن لا ينافي بشريَّتي وضعفي وتطلعاتي.

دفعت النافذة برفق وأنا في قرارة نفسي مقتنع تماما أنها تنتظرني وأنها قد أطفأت المصباح من أجلي لكي يتسنَّى لي الدخول إليها في ستر، والليل أخفى للويل..

دفعت بحذر شديد حتى فتحت النافذة كلها، لا أراها جيدًا في الظلام، لكن أرى مكانها، أرى شبحها على السرير لكن لا أتبيَّن شيئًا.

رفعت رجلي وأنا أرتجف بكامل جسمي ووضعتها داخل الغرفة، ويداي تمسكان بإطار النافذة ثم أردت أن أُدخل رجلي الأخرى إذا بي لما أردت وضعها على الأرض تتعثر بإناء من فخار فسقط محدثا صوتا فاضحا لا يشك من يسمعه أنه انكسر!!!! تسمَّرت في مكاني لأعرف ردَّة فعلها، لا أدري إن كان بقي في جسمي دم، ومن أين أتى ذلك العرق، أما قلبي فكاد يقفز من النافذة بدلي.

مدَّت يدها إلى زر بجانب مخدعها وأشعلت المصباح، وإذا هي امرأة عجوز نحيفة، بشعر أحمر مضفور، أردت الكلام فتلعثمتَ، وطارت كل التبريرات، وتبخرت كل الأعذار حتى السخيفة منها، وجفَّ حلقي فقلت بسرعة:

– قصدي شريف يا خالة، لا تؤاخذيني ...

– يا بنيَّ من قصده شريف لا يدخل من النافذة!!!

ردت بصوت ضعيف لكن قصفه كان قويًّا صمَّ أذني وبقيت جالسة والسبحة في يدها، وبقيت أنا جسما لا حياةَ فيه، ودارت بي الأرض كأنني وسط آلة غسيل، وطافت بي الأكوان حتى كدت أسقط من الحياء، وتمنيت للمرة الأولى في حياتي لو أن الأرض انشقت وبلعتني! لذلك قلت لك قتلتّني.

لقد قتلتّني!

– هذا كل شيء؟ قتلتّني؟ لم تقول هذا؟ كيف قتلتّك؟ من ساعة وأنا أنصت لك كأنما تتحدث عن مغامرة لتقول في الأخير: قتلتني!!! أنت من قتلها! المسكينة ربما ماتت من الفزع.. ألم تستحِ من فَعلتك؟

– لم تكن هي... أنا متأكد ليست هي، تلك العجوز لم تكن الفتاة التي راقبتها منذ أيام.. ليست هي بتاتا.. هناك شيء لا أفهمه ولا يقبله عقلي..

– تريد أن تقول إن الفتاة التي رأيتها هي التي قتلتّك؟ أنت لم ترها أصلاً؟ يا حنون... ما فعلته يسمَّى جريمة في العرف البشري كله، تدخل من النافذة على الناس وتريد أن تخرج حيًّا...؟ لو قتلوك لما كانت لك دية! ما هذه الحماقة؟

– كفاك استهزاء.. لا أتحدث عنها.. التي قتلتّني بكلامها هي العجوز.. غلبني الحياء حتى أني لم أستطع الوقوف، عظُم علي جرمي بعد أن نظرت في عيني وهي تقول لي ذلك الكلام بصوت هادئ.. غير خائفة ولا فزعة من دخولي من النافذة.. قالت ذلك كأنها استحقرتني ثم ذهبت للنوم، وكأنها لم تبال بوجودي، أحسست بقلة القيمة، بل باللاقيمة.. يا ويلي! يا لفضولي وهوسي وطيشي!

أين قادوني؟ لم أر خزيا في حياتي أبلغ من هذا.. أحسست بنفسي كأني لص وضع يده على ما في صندوق فاشتعلت الأضواء الكاشفة من كل الجهات، لأرى جمهورا عريضًا ينظر إلى فَعلتي الشنيعة، قد حفرت تلك العجوز أخدودًا في نفسي، لا أدري كم يلزمني لطمره!

أما الفتاة فقد نشبت أضفارها في قلبي، ونقشت خيالها في ذهني.. صحيح أني لم أتبيَّن وجهها، ولم أر ملامحها، لكن شكلها انطبع في ذاكرتي لو شئتَ رسمتها كما هي..

– اذهب هناك مرةً أخرى لتعود مذبوحا... وتقول ذبحْتني ذبحْتني...!! زادت نسبة التهكم عنده وأنا في حالة لا تسمح بذلك، فرددت بغيظ:

– توقف عن سخريتك –قلت لك– فلم أعد أحتمل...

– أعرف أنك ستعود... وستحاول ألا تراك العجوز، وهذا الحمق لن تجد له أبدًا مبررا مهما صعدت أو نزلت، ويبدو لي أنك فقدت عقلك وبوصلتك هداك الله إلى الجادَّة...

– لن أدخل من النافذة هذه المرة، وسأذهب في وضح النهار، وأطرق باب الدار وأستأذن العجوز في الدخول... لي سبب وجيه لذلك..

– ستخطب البنت؟ بعد جريرتك تلك؟

– لا أيها البارد... سأذهب هناك وأطرق الباب وأدخل لأطلب منها أن تسامحني على فَعلتي تلك.

– أرجو أن تعود بخير.. أعلمْني لأودّعَك وأتسامح معك.

– يا لسخفك... أنت لا تفهم ما بي...

– لا أريد أن أفهم، لكن الذي عليك أن تفهمه وتعيه أنك فعلت فَعلة شنيعة.. ما كنت أتصور أن تصل بك الحماقة إلى هذا المستوى، ولو يصل خبرك إلى الأهل لعرفت مقدار الفضيحة التي لطُخت بها نفسك..

ثم سكت لينزع سكيناً آخر من قلبي من طعنة لوم قاسية لكن تعمدت أن أتفادى كلامه لأنسى وأنا على يقين تام بأن مغامرتي تلك فضيحة بكل المقاييس، لكن الذي حصل لي لم أعرفه، أحسست بانقلاب في كياني، شيء ما احتل منطقة من صدري، فتغاضيت وكأني أغطي جرحا عميقًا بمنشفة، واهتممت بذلك الدخيل الذي اقتحم علي خلوتي، لم أنس ما حصل معي، وما حصل لي.. لذلك أنا ذاهب هناك لأرمم ما بقي من قيمتي وكرامتي أولًا.. وأعيد بناء قلب قد تهدمت أسواره.

قلبي هناك، أعرف أنه ما يزال رابضًا وسط شجرة الدّفلى الملتفة، ينتظر ظهورها..

وهناك كرامتي أيضًا، ليس لي أغلى منهما.. سأغامر بكل شيء حتى لا أخسر الاثنين، وإن خسرت واحدة كانت فداء للأخرى، ولا أدري أيهما أحب إليَّ ألّا أخسره؟! الاختيار هنا صعب جدًّا.

إن وجدت العجوز بالغتَ في الاعتذار، وبالغتَ في طلب الصفح والعفو، وإن وجدت الفتاة معها، لا أدري ماذا سأفعل عندها، سيكون اللقاء صعبا وفوق العادة والاحتمال.

ثم قررت الذهاب في رحلة مصيرية، حاملًا سلاح العزم على ألّا أعود إلّا بالحسنيين معي.. أو أعود بواحدة منهما وأحبهما إلى قلبي.

وفي الغد بعد أن أخذت فَطوري، بقيت أفكر طويلًا فيما سوف أقوله للعجوز، وماذا لو فتحتْ هي الباب؟ لم أجد شيئا يصلح للحظة الاقتحام، لكن لا بد من الذهاب ولا مفر من المواجهة، كلا ولا وزر.. وفي الأخير خرجت متجها إلى بيتها.

وقفت أمام الباب وكل جسمي يرتجف.. ترددت قبل أن أطرق.. لملمت بعض مشاعري المبعثرة، وجمعت ما تناثر من أحاسيسي، وطرقت الباب..

لم أنتظر طويلًا حتى سمعت:

– ادخل فالباب مفتوح..

تنتظرني...؟ يا ويلي.. ماذا أعدَّت لي؟ هراوة أم سيفًا؟ أم بندقية؟

يا لك من جبان! ادخل وسترى.. لا لا، ربما هو كمين.. وأنا في كل الأحوال إن دخلت دمي هدر. كيف أدخل معركة خاسرة من البداية؟ لكن كيف أرجع وأنا على بعد خطوات منها... كيف أعود وقد بلغت مضارب الخيام.. وهل أعود تاركًا وتد الغرام؟

وضعت يدي اليسرى على مخصرتي ليس فيها خنجر، ووضعت اليمنى على قلبي.. ثم مددتها إلى الباب.. إن كان لا بد من الموت فالآن، قد طاب لي الموت..

ثم دفعت الباب إذا بالعجوز جالسة أمام مائدة عليها أكل وشرب.. من عادة العجائز عندنا أكلة الضحى بعد حوالي العاشرة، وهي عادة ما زال الكثير يتمسك بها وقد صادفت ذلك الوقت وتلك المأدبة المتواضعة.

– تفضل يا بني.. اجلس.. اقترب لا تخف.. اجلس لتأكل معي..

– شكرًا جدتي.. لم آتِ لذلك. جئتُ لشيءٍ آخر!

– كُل.. كُل.. أصب من هذا فأنت لم تذقْ طعام الجدات من زمن طويل.

– أشكرك، ولكن يا جدتي جئت لاستسمحك مما بدر مني..

– يا بني.. قد سامحتك ذلك اليوم وطلبت الله أن يغفر لك، وقد أشفقت عليك مما بان على وجهك حتى لم أقدر على النظر إليك، وتركتك لتذهب دون عتاب قد يقضي عليك..

– هل سامحتني فعلًا يا جدتي...؟

– يا بني.. وإن لم يعجبني تصرفك وغضبت قليلًا لكن سامحتك، فكثيرون يمرون من هنا بعضهم يقف، وبعضهم يمضي، أما أنت فكان جلوسك أمام النافذة يؤنس وحشتنا فكيف أجد عليك.

– هل أنت وحدك هنا؟

– نعم..

– ألا يزورك أحد؟ أليس لك أقرباء يتفقّدونك؟

– لي حفيدتان، تتناوبان على زيارتي، لتقمَّا البيت وتنظفاه وتعيناني في أموري..

صرخت في داخلي: يا ألله هي! هي ! والله إنها هي، كنت متأكدًا أنها هي. إذن التي رأيتها وراء الستار.. كانت حفيدتها...

والآن هل أستمر في حديثي معها، لأعرف منها تفاصيل أكثر عنها؟

يبدو أنها أنست بي وأنا أيضًا قد أنست بها، وها أنا قد دخلت المعركة التي اَعتقدت أني مقتولٌ فيها..َ

بقي أن أعرف متى تعود تلك الفتاة...

هل أطلب منها ذلك؟

هل أسألها عنها؟ كيف أبدأ سؤالي...؟

أنا الآن دخلت من الباب وضمنت كرامتي، هل أعود بخيبة لقلبي.. لن تُتاح لي فرصة أخرى كهذه..

بأي علة أتعلل لأدخل الدار مرة ثانية؟

وما يدريني من يكون مع العجوز في المرة القادمة...؟

ثم صحت في نفسي: كن رجلًا ولا تخيبها مرة أخرى..

طلبتَ السماح فسامحّتك، فلا تجمع نيتين في عبادة واحدة.. قد تصغر في عينها وتعود إلى بيتك تجرجر أذيال العار..

وضعت قلبي في جيبي وقلت له: أعدُك أن أجد لك مسلكًا..

عدنا بالكرامة الآن، سنعود بما تريد في الحلقة القادمة.

بقيت أياما وليالي أدور في حلقات واسعة من التفكير.

شرَّقت وغرَّبت لكن عدت من التيه بخُفَّي حُنين..

لا شيء سيوقفني.. فلم أمنع نفسي من التفكير فيها.. بل انطلقت وتركت هواي لعواصف من الأحلام لا قبل لي بها، طوَّحت بي في أودية لم تخطر لي على بال، وفي قلبي تدوَر كلمة واحدة كزوبعة في ميدان فسيح تتردد: لا بد أن ألقاها...

لا بد أن أراها..

هل أعود إلى مرصدي قبالة نافذة جدتها؟

وأراقبها لمَّا تخرج من عندها؟

هذه الفكرة تعيد لي لحظات الخزي التي مررت بها، وأشعر كمن يعود للسرقة مرة أخرى لكن باختياره، وهل لي من حيلة أخرى؟

لا بد أن أعرف مواعيد زيارتها،

نعم، نعم يجب أن أعرف مسكنها..

قد قالت العجوز أنها تأتي لتقمَّ البيت ثم ترجع بعد ثلاث ليالٍ لتأتي أختها!

لكن كيف قالت إنها ترجع، وأنا رأيتها باتت هناك عدة ليال؟

ربما بكرت بالعودة صباحاً قبل أن أصل...

إني أحترق من الفضول.. ومستعد لدفع أي مقابل لمعرفة ما أريد.. إنها تستحق أن أغامر من أجلها.. وأنا أيضًا أستحق أن أغامر من أجل شيء علق بداخلي لا أستطيع الانفكاك منه.. إنه عشق لا محالة..

إنها نار.. لا دخانَ لها لكنها تحرق، ولا جمر لها لكنها تكوي..

كيف لي أن أهدأ وهذه النار لم تخب، وكيف تخبو وهي تزداد اشتعالاً كل يوم، وقودها كثرة التفكير، وذلك الخيال الذي تابعته لعدة ليال، وفي كل مرة يحفر في قلبي سكة من حديد، لا تسكن حركة القطارات فيها، كل يوم قطار يأخذني وقطار آخر يردني، في محطات من التيه والهيام والأشواق والخوف والعتاب والحزن والإحباط والقلق وليس فيها محطة أمل واحدة أستريح فيها.

لن أسمح لنفسي أن أعود إلى البيت إلا وقد سكن القلب وأفرخ روعه لكن كيف؟

يكاد هذا السؤال يحرق أطراف شفتي من تكراره... كيف؟ كيف؟

المغامرة لا بد منها.. كيف؟

ولم أغسل نفسي من الفضيحة إلا منذ أيام، وقد تركت ماء وجهي هناك، بل وضعته في التراب حتى يصدّقوا اعتذاري...أأعود إلى كهف فضيحة أخرى لا يغسلها الماء...؟؟َ

العجوز رأتني من بعيد.

كيف رأتني وقد كنت مختبئَا جيدًا؟

بل إن نظرها لا يسمح أن تراني عبر النافذة، وأنا كنت في مكان مستور...؟؟

وكيف رأتني وكان الظلام يحيط بي من كل مكان فقد كنت آتي المكان ليلًا؟

العجوز لا يبدو عليها الغباء..

خبرتها في الحياة جعلتها ترى جالسةً ما لا أراه أنا واقفًا...

ربما رأت مروري من تلك الطريق نهارا، أنا أصلًا أمر من هناك يوميا وهذا سبب بلائي، الحي الذي أسكن فيه أنا وأخي يقع في الطرف

الجنوبي لبركان مدينتي، على مشارف دوار سيدي بن يخلف وبيت العجوز يقع على طريق ورطاس الذي يؤدي إلى وسط المدينة وهذا يعني أنها هي من كانت تراقبني دائما وتعرف تحركاتي، فهي طريق أمر بها صباح مساء، يا ألله ماذا أفعل؟

لا مناصَّ من أن أعود، ولكن هذه المرة لا أعود إلا في تحفُّظ شديد...

لن أطيق الانتظار أكثر فصبري ينقص يوما عن يوم، وكأنه كومة رمل في ساعة، والحبات تنزل بشكل مخيف، ساعة الصفر تقترب، ونفاد الرمل وشيك، وفي المقابل قد تكون الفتاة بانتظاري وأنا لا أعلم؟

وقد يكون وقع لها ما وقع لي؟

فربما عشقتني؟ ممكن؟

أين أذهب من هذه الوساوس؟

أين أتخندق حين تداهمني الأفكار المخيفة؟

قد أتعرض لفضيحة أكبر من الأولى إذا اكتشف أمري، ولا أظنني أنجو من عواقبها وربما تكون سبب تركي لهذه البلاد، والله لن أسامح

نفسي، ولن أطيق المُكث هنا ساعة واحدة، ولن أسلم من لسان أخي وتقريعاته المستمرة،

لكن لا بد من حل!!!

ألم تقل العجوز: من قصده شريف لا يدخل من النافذة...؟

سأدخل من الباب، لكن قبل ذلك لا بد أن أتعرَّف عليها، أو أراها حقيقةً في وضح النهار وليس شبحا على ستار النافذة.

سأراقب من بعيد، سآخذ المنظار معي، واتخذ لي مرصدًا آخر.. وأكون أكثر حذرا واحتياطًا.

المدرسة الإعدادية التي ليست بعيدة منها تحيط بها أشجار توفر لي بعض الستر، سأتجنب الطريق حتى لا يراني أحد.

صعوبة الاختباء والتنكر نهارا يمنعني من الاقتراب من البيت، مثلما كنت أفعل بعد حلول الظلام، سأجلس عند حائط بيت مهجور لم يكتمل بناؤه، وقد نبتت الأعشاب داخله، ولم أر أحدًا من قبل اقترب من هناك، أو فتح ذلك الباب الحديدي الذي أكله الصدأ، وتغيرت صباغته بفعل الشمس وعوامل الطقس، لا أدري إن كنت سألقط شيئا من هناك لكن لا بد من المراقبة من بعيد حتى وإن تطلَّب الأمر لعدة أيام أخرى، إنها معركتي التي أريد أن أعدل فيها

الكفة، أو أقلب الميزان لصالحي، إنها بالنسبة لي مقابلة الإياب الحاسمة، لكن لا أشواط إضافية فيها، ولا ضربات جزاء، إنما تتحدد بهجوم كاسح مرتد ووصول إلى الشباك أو أتقهقر للدفاع وتُحسم المباراة ضدي، لذلك لا بد من الإعداد جيدا.

وفي أحد الأيام المشمسة الصافية على برودة خفيفة وكانت الشمس قد نضَتْ ثوبها الأحمر عشية، فجأة رأيت على بعد المسافة خيال امرأة تخرج من عند العجوز، رباه! إنها هي.. أقسم إنها هي، ها هي تخرج من البيت..

لكن لا أتبيَّن وجهها من هنا..

وتلبس برقعا..

لم تكن تتبرقع من قبل،

وهل تتبرقع داخل البيت؟ لا تكن غبيا!

آه نسيت نعم لن تغطي وجهها إلا إذا خرجت.

إنها هي.. هي بلا شك..

يا لخفقان القلب سيتوقف من شدة ضرباته.

يا إلهي إنها تسلك الطريق الذي أقبع غير بعيد منه.. وهي متجهة نحوي، إني أرتجف.. هل أكلمها؟ إنها تقترب.. لا وقت للتفكير والتردد.. إذا مرت الآن فقد تفوتني الفرصة إلى أجلٍ غير معلوم، ولم يبقَ من صبري سوى حبات رمل معدودة، ومرت من أمامي دون أن تلحظ وجودي ورأسها في الأرض، كأنما تتبع شيئا فقدته، وفي لحظة وقفتَ أقاوم تشنج عضلاتي، وأنا أمشي نحوها:

– انتظري.. أريد أن أكلمك؟

–...نعم؟؟!!! ردت بشيء من الذعر ظهر عليها لأنها تفاجأت..

– أرجوك انتظري لحظة.. لن أطيل عليك..

– نعم؟! واستمرت بالمشي دون التفات..

– راقبتك أياما طويلة كي أكلمك..

– يا لك من فارغ...

– ماذا؟

– ما سمعت.. إنك فارغ.. لو كان لك شغل تشغل به نفسك ما جلست تراقب بنات الناس.

– فعلت ذلك من أجلك.. توقفي حتى نتحدث بهدوء..

– هل أنت من معارفي أو أهلي؟ قالت بحدة ثم أردفت: لا تضطرني أن أسمعك ما يجرحك.

– قد وقعت من قلبي موقعا لا أُحسد عليه ويبدو أني عاشق لك متيم.

– وتسمح لنفسك بمغازلة من شئت.. فراغ وقلة أدب؟ ألا تستحي؟

– أريد أن أتعرَّف عليك بقصد الزواج.. وقد أحببتك من أول يوم رأيتك فيه..

توقفت لُحيظة ودون أن تلتفت.. وقد علا خدها سفعة خفيفة من الحياء لم يسترها البرقع الشفاف..

– بيتي هناك.. وأشارت لبيت غير بعيد، ثم استرسلت: قد تتعرض للأذى إذا استمررت في ملاحقتي.

يا للخيبة! وقفتَ أم أوقفني الجبن...؟

جبن عن أن يصيبني أذى..

ألم تقل إنك مستعد للموت لأجلها.. وطاب لك الموت...؟

ما لك تصل إلى عين الماء وتعود منه عطشان؟!

وتعود تجرجر أذيال عار..

تافه وسخيف وفارغ وجبان... كل عيوب الدنيا هذه أخسُّها، وقد جمعتها في حقيبة واحدة، أصبحت وزير حقيبة الانحطاط..

تشجع ولو مرة واحدة في حياتك.. لا نجوتَ إن عدتَ بهذا كله..

ولا وقاني الله ما أحاذر إن تركت فرصة عمري تذوب كالجليد أمامي.

ضاقت علي الكلمات وازدحمت في فمي فانفجرت قائلًا:

– لست فارغًا ولا قليل أدب، ولكن رجوت خيرا وطمعت في حلال.. ويبدو أن عجرفتك أنْستْك أن طلب الحلال ليس من الفراغ. ويبدو أني أخطأت لما كلمتكَ.. اذهبي بسلام.

وعدت أدراجي منكسرا مرة أخرى وبقي في النفس أشياء، وكانت خطتي إظهار الاعتزاز بالكرامة لتفهم إنها جرحت، وإظهار بعض الجد والحزم حتى أمحو ما لطختني به من صفة الفراغ والبطالة، ومشيت بخطوات مثقلة.. وأنا أنتظر مفعول تلك الكلمات دون أن ألتفت، ثم فجأة سمعتها:

– انتظر..

التفتَ إليها وهي واقفة وقد قبضت بيدها اليمنى على اليسرى وعلى استحياء شديد ودون تلعثم قالت:

– سامحني.. لم أُرِد أن أجرحك.. فليس من طبعي كسر الخواطر..

– لا عليك.. أنا أيضًا أعتذر عن وصفك بالعجرفة.. كانت ردة فعل فقط لم أقصَدها.

– لا تهتم..

– هل تسمحين لي بكلمة فقط ولن أزيد، أعدك.

– تفضل..

– من أول يوم رأيتك فيه عند جدتك وقعت في قلبي وأحببتك بقوة، وكأن ذلك كان يزداد كل يوم.. ويتجدد عند كل زيارة فقد بقيت الأيام والليالي أراقبك. والآن وقد رأيتك تضاعف الحب وزاد التعلُّق..

وقبل أن أُنهي لوعتي.. رأيتها تنظر إلى الأرض كالمتأسفة الحزينة ثم رفعت رأسها وقالت بابتسامة فيها تغيُّر وتبدُّل:

– كنت تراقب سراب.. وعشقت سراب.. هي من كانت عند جدتي.. أمَّا أنا فلم أزرها منذ مدة لسبب فوق طاقتي منعني، لذلك كانت أختي هي من تأتي عند جدتي..

– سراب؟

– سراب أختي. والآن امضِ في أمان الله...

ثم ذهبت لحال سبيلها، وبقيت هناك دهشًا، لا أدري ما أقول ولا ما أفعل..

أُسقط في يدي..

أقبل أم أدبر.

سراب...سراب.. كنت أراقب سراب..

يا ويلي وكيف لي بسراب..

– وأنت ما اسمُك؟

– أحلام.. ردت دون التفات.

انفجر عقلي شظايا

وطارت النفس شَعاعَا

وانشق القلب نصفين..

كنت أتبع سراب وأراقبها وهي خيال وراء النافذة،

ورأيت اليوم أحلام ملء عيني حقيقة.

وبحتَ بحبي لأحلام ما أُضمره لسراب..

وأنا الآن.. هل أعشق أحلام أم سراب؟

لا أدري ولا أجزم بشيء.

أحلام رأيتها.. وأحسست بها، بل وكدت ألمسها بيدي،

أما سراب فقد عشقت خيالها وصورتها...

إلهي ما الحيلة مع هذا الحيرة.. وما الحل لهذا الوثاق..

كلما أقول وصلت إلى غايتي أتقهقر إلى الوراء...!!

لكن.. مع هذا فقد شعرت بنوع من الانتصار.. نعم قد اعتذرتْ والتفتتْ وكان يمكنها أن تكتفي بذلك النصر المحقق..

وأكثر من ذلك خافت علي من الأذى وأحسست من صوتها رقة. هل يا ترى مالت إليَّ؟

لا أدري.. أسئلة كثيرة قطعت بها وقت رجوعي إلى بيتي.. وأحرقت طاقة عظيمة في محاولة فك هذا اللغز المحير.

سراب أم أحلام...؟

حب قديم وحب جديد.. يا ويح قلبي من الحبَّين؟

أعيش ذكرى سراب ومغامرات البحث والترصُّد وعشق صورة معكوسة على نافذة؟

أم أهيم في حقيقة أحلام تهتَ في شخصيتها القوية، وضِعتُ أمام جمال رباني وحياء وخلق...؟

لك الله يا قلبي..

كم ستحتاج من ضمادات...! وكم ستستهلك من كمادات...! أتعبتَ نفسك في سراب، ولمَّا تمكنتَ منه ذاب.

وطمعت في أحلام، ولما كدت تلمسها تبخرت أمام الحقيقة.

إلهي عبدك الضعيف لا يملك حيلة ولا وسيلة!

له قلب رقيق يطمع في رحمتك الجليلة!

اكتب له بفضلك حصانة من الرذيلة!

واغنه بالحلال وجمّله بالفضيلة...!

– آمين.. حمدًا لله على سلامتك.. اُحططْ رحالك فقد بلغت.

فاجأني أخي لمّا سمعني أدعو ولم أنتبه له وهو في النافذة يتابع اقترابي ويسترق السمع لحواراتي الداخلية، فتصنَّعت اللامبالاة وقلت أجيبه مع ضحكة فيها استخفاف:

– يبدو أني أعود إليك كل مرة على هذه الحال، فقد تعودت على مغامراتي...

– هل من جديد...؟ وما هذا التأخر؟ هذه أول مرة تدخل بعد العشاء في غير عمل ولا دراسة ما الذي أخَّرك حتى هذه الساعة؟

– جديد وقديم.. ماذا تريد أن تعرف...؟ أو أقول لك، فقد أجهدت نفسي بقية اليوم في التفكير، دعني أذهب لغرفتي أريد أن أنام، أحكي لك غدًا فأنا عائد من معركة نلت فيها ونيل مني.

ثم دخلت غرفتي لأهرب من تحقيقاته وأتفادى سخريته التي يقضي بها يومه ونهاره، لكنه تبعني وأصرَّ أن يعرف، تملصت ببعض الأعذار لكن في الأخير اضطررت أن أُخبر باختصار سريع بأمر الفتاتين وأنا منهك، لم أُطق أن أمدد الخبر أُنملة، ثم أكملت بقولي له:

- تصبح على خير..

- يا لك من مراهق..
- قل ما شئت.. فأنا تعبان، وأعدك أن... تصبح على خيـــر.....

نمت كطفل في مهد، لم أنقلب في فراشي، بل استيقظت كما كنت لمّا وضعت رأسي على الوسادة وكانت إفاقتي على صوته وكنت في حلم:

- أصبحت، أصبحت!!
- اه.. هااه.. أصلّيت؟ لمَ لمْ توقظني؟
- لم أصلِ بعدُ أنا أنتظرك..
- طيب، نصلّي معاً..
- هيا قم لتتوضأ أيها الكسول!
- أيقظتني من حلم جميل أو رؤيا.. أتوضأ وبعد الصلاة أخبرك بما رأيت في منامي. ثم ذهبتَ للميضأة.

يا له من حلم رائع..

قد وضحت الصورة وبانت واشتدَّ القرار في ذهني واستوى على ساقه..

هل أخبره؟ أو هل أخبره بكل شيء؟

لم يبقِ لي هذا المنام أدنى مزعة من تردد..

كأنني أُساق إلى ما أنا لاق. بعد الصلاة يحلو الحديث في هدأة الصبح ومع أول تغريدات العصافير المبكرة..

- خير، ماذا رأيت...؟!
- ماذا؟ آه، تريد أن أخبرك بالرؤيا؟!!!
- سميتها رؤيا؟ هل أنت متأكد؟ ربما أضغاث أحلام، لا، لا أضغاث سراب. ثم انفجر ضاحكًا حتى استلقى، ضحكة طارت منها تلك العصافير التي على الأغصان القريبة من الغرفة، وطارت منها أفكاري وأعصابي فقلت محذرا له:
- هل تريد أن أخبرك أم تريد أن تستمر في سخريتك؟
- عفوا، عفوا أخبرني.. اووف أضحكتني صباحا.. أنا أسمعك ماذا رأيت؟
- قبل أن أحكي لك.. هل لديك شغل هذا الصباح؟
- لدي مشوار مع الضحى.. أقضيه سريعًا، لِمَ السؤال؟

- أريد أن تحضّر نفسك للذهاب معي لخطبة الفتاة...
- ويحك! ما هذا القرار المفاجئ؟ هل فكرتَ قليلًا؟
- بدل أن تبارك لأخيك وتفرح، تُسرع إلى توبيخي وإخافتي!! هل يحتاج الأمر إلى تفكير؟! ومع ذلك فقد فكرت وقررت أن أتزوج لكن كنت محتارا بين الفتاتين. أمَّا الآن فقد لاح لي الأمر.
- كيف لاح لك الأمر؟! أنزلَ عليك الوحي؟ البارحة كنت تائهًا تعبًا من التفكير، ولا تعرف رأسك من رجليك، والآن تقول ليَ قررت!! كيف؟
- قبل أن توقظني رأيت فيما يرى النائم أني أسير بين جنَّتين خضراوين كل جنة قطوفها دانية تدعواني.
- الله الله جنتان...؟ الناس تطمع في جنة واحدة ولا تجدها والرجل يختار! وفسَّرت المنام أنهما الفتاتان؟ ما يدريك يا بن شيرين؟ وكاد ينفجر مرة أخرى لكنه تماسك ووضع يده على فمه.

- دعك من التهكم –الله يسترك– هناك أمر أكد لي ذلك، وهو بعد ذلك سمعت هاتفًا يقول: دعك من السراب الخداع وهلمَّ إلى أحلام لا تُشترى ولا تُباع!

لم يعلّق على كلامي، لكن رأيت احمرار وجهه حتى كأن الدم سيخرج من حنكَيه وعينيه وهو يمسك نفسه من الضحك فقلت مقاطعا بحنق شديد:

- انتظر أن أُتمَّ كلامي.. أنت تغيظني بسخريتك.
- أكمل يا دون جوان!
- بعدها بقليل سمعت أذان الفجر؟
- كيف عرفت أنه أذان الفجر وكنت تتجول بين جنَّتين؟ التجوال يكون مع العصر..
- أولًا، ليس في نفس الحلم، ثانيا سمعته يقول أصبح ولله الحمد، أصبح والحمد لله رب العالمين. ثالثا أنا أحمق إذ أحكي لشخص كل همه الاستهزاء والسخرية..
- لا تغضب لا تغضب أنا لا أستهزئ بك، إنما سأُبين لك أمرا حتى تعرف أن تأخذ قرارك وتعرف أيضًا لمَ كنتُ أضحك لمَّا

كنت تسرد لي رؤياك. أمَّا الهاتف الذي سمعته فلم يكن سوى أخيك.

- ماذا؟

- أيقظني غطيطك، فقمت وتوضأت، وجئت وأنت في نومك العميق حاولت إيقاظك لكن يبدو أنك كنت بين الجنتين – قال مقهقها– فهمست في أذنيك: دعك من السراب الخدَّاع وهلمَّ إلى أحلام لا تُشترى ولا تُباع، فاكتفيتَ بأن قلبت رأسك وهَمْهمتَ بكلام لم أفهمه، تعرف كعادتك فأدَّنتُ للفجر.

- ماذا تقول؟ أنت الذي..

- نعم أنا الذي.. رد بنوع من الجد ثم تابع: صدمتْك الحقيقة يا أبا الأحلام؟؟

- أصادق أنت فيما تقول أم هي إحدى مقالبك؟ احلفْ

- تعرفني جيدًا؛ أُكثر المزاح وأحب إغاظتك، لكن لم أزِد حرفًا على الحقيقة فيما ذكرت لك. مع كل ذلك لا تحَزن ولا يهمك أمر ما قلته لك، قل لي ما قررت وأنا أساعدك، من اخترت؟ أحلام أم سراب؟

- كان قراري أن أخطب أحلام لكن بعثرتَ القرار الآن. أعدتني إلى نقطة الصفر، سأنتظرك إلى أن ترجع، سأجلس لأفكر على مهل، وبإذن الله لا أُمسي إلا خاطبا إحداهما.
- حتى تقبل بك! من تظن نفسك يا عريس الغفلة؟
- تَصوَّر، لم أفكر في هذا. ويحك هذا محتمل.
- وهل أنت على استعداد للتأهُّل؟! أم ستستعمل رأسمالك الضخم من الهيام والعشق للنفقة.
- لا تقلق تجارتي تكفيني وتعيلني وأهلي! وسيفتح الله أبوابا أخرى.
- فكّر على مهلك سأخرج الآن.

نعم سأفكر ولو أني لن أزيد شيئًا كبيرا على ما قررت إلا أن أدعم اقتناعي بسبائك من حُجج العقل وخيوط من نور الفكر وأوشّح ذلك كله بورود حمراء تسقيها دماء قلب عاشق وتسكب عليها مَن رومانسيته.

سراب تخللت عروقي ودمي، وضخها القلب ذهابا وإيابا في شراييني، وجرت نجيعا في أوردتي، لكن لم أر لها صفة ولا شكلًا. تخيلتها أميرة

بشعرها الطويل وقامتها المقّاء. لم يكن لها ملامح أعرفها بها إلّا إطارا من ظل، أو طيفًا من خيال، فجاءت أحلام بصورتها وطبعتها في ذلك الظل حتى تبيَّنتَها كأني أنظر إليها بوجه أحلام.

أما أحلام فزادت على الواقع، وربتْ على الخيال، ورسخت صورة وجهها في ذهني كالقمر المنير، الطول ذاته في القوام ذاته، لكن لا تحدُّه الأوصاف، وقد سَتَرْته عن العيون وضَنَّت به على المتربصين. والصوت الرخيم يشفعه الحياء، والكلام الرزين تُزَيِّنه الحشمة، والعقل الكبير والتواضع الجمّ. رغم ميلي الظاهر إليها لكنَ أحببت ألّا أتسرع حتى أرى سراب رأي العين فأقرر حينها من أطلب للزواج.

جمعتَ شتات فكري وركنتَه في زاوية ريثما أعود لبعثرته عند الاقتضاء، وبعد أن عاد أخي تهيأنا بهيئة حسنة وذهبنا إلى البيت الذي أرجو فيها نوال سعادتي وأحطُّ عنده رَحلي، وأفوز براحتي لم يكن بعيدًا عن بيت العجوز، بل كان أقرب إلى حيِّنا من بيت العجوز. وقفنا أمام الباب.

- ما لك؟ أهذا هو البيت؟ أطرق إذن. قال لي مظهرا بعد الحزم.

ثم طرقت الباب وإن قلبي لولا أضلعٌ تشده لنطَّ من خفقانه. خوف وتردد وحيرة، بل هلع ونكوص وارتباك.

يا ويح ثباتي أين هو؟

أيتركني في الوقت الذي أنا في أمسِ الحاجة إليه؟ ما لي؟

أخوفٌ من لحظة اللقاء؟

أم من رعشة الوصال؟

وهل أستطيع أن أنظر في عين أحلام إذا مالت النفس إلى سراب؟

وإذا ملت إلى سراب كيف أنسى ذلك الوجه الذي وقف أمامي تحت البرقع وانحنى له كبريائي؟

فجأة قطع هذه الهواجس صوت من الداخل وتبعه قلقلة المفتاح، وفُتح الباب قليلًا، وإذا امرأة وراءه تنظر كأنما تريد منا أن نعرِّف أنفسَنا، فقلت دون تردد: ضيف الله!

فأوسعت لنا الباب قائلة (مرحبًا) وأُدخلنا إلى بهوٍ، ومنه إلى غرفة صغيرة تشبه قاعات الانتظار لكنها أكثر تنجيدا وزينة مع بساطة وقلة ألوان، ومزهرية فيها باقة من ورد أعرف أنه من حديقة الجدة التي كنت أراقب بيتها من بعيد، باقة ورد حديث القطف لم يسرع إليه الذبول، ولم تسقط بعد أوراقه.

بقينا ننتظر هناك ثم بعد مدة دخلت فتاة تحمل إبريق شاي في طبق وتبعتها أخرى تحمل ما يلزم الشاي من مالح وحلو. لما اقتربتا من المائدة كاد قلبي يطير من هول ما رأيت.

الفتاتان صورتان متطابقتان.

جمال بارع وقدٌّ فارع وثغر بسَّام ووجه وضيء.

إحداهما تربو على الأخرى بخال دقيق وتستر نصف شعرها عرفت حينها أنها سراب، وعرفت أحلام لما اختلستْ نظرا إليَّ علَت خدها حمرة كتلك التي رأيت من قبل، لكنها لم تتبرقع بشيء، بل اكتفت بحجاب ألقى بظلال الجمال عليها وزاد ذلك الجمال تاج من الحياء، أعطاها وضاءة وجلالًا فدكتا بإدبارهما آخر معاقل قلبي، واحتلتا أقطاره وغرستا علم الفوز به وسط قلاعه.

ربَّاه ما القرار؟ ربَّاه هل أملك الاختيار؟

ها هي أمامي تلك التي أحرقت أشرعتي، وكسرت سفني في بحر هواها دون أن أراها.

ها هي الآن تدمّر قواعدي على مرمى حصاة، وتزلزل أركاني عن قُرب، وتحطُّ الطبَق فوق المائدة وتعود سالمة إلى مواقعها كما عادت أحلام.

وتعود بعد وضع الطبق ثم تدخل امرأة لا تقل جمالًا عنهما لكن تفضلهما سنا وهيبة، وتربو عليهما جلالًا ووقارا.

هل سيبادر أخي بكسر هذا الصمت والحديث عن الخطبة؟! فليس من عادته أن يطول صمته ولا من سنَّته البقاء جالسا بأدب دون تعليق ولا سخرية.

هل ابتلع لسانه؟ أم قرَّر ألا يتكلم حتى يجفَّ حلقي، ويتبخر صبري أم لعلَّه أصابه مما أنا فيه شيء؟؟

لم تمرَّ بي لحظة أعتى، ولا موقفَ أنكى من هذه اللحظة.

رجوت من محكمة القدر أن تمهلني وقت المداولة حتى أبتَّ في أمري وأقطع عنق ترددي بسيف من يقيني.

عرفت الآن أن قول أخي ويحك!! ما هذا القرار المفاجئ؟ كان محقًا وكنت في أوج طيشي إذ طلبت منه المرافقة.

وسأصحح هذا العجلة بنفسي قبل أن يقطع سيف القدر بفصل لن يحتمله قلبي.

وجلست المرأة في وقار وهي تعرض علينا أن نتناول ما قُدّم فوق المائدة، ثم صبَّت الشاي وقربت لكل واحد منا كأسا ثم قالتَ:

- تفضَّلا! مرحبا بكما.

- شكرا سيدتي.. رددت عليها وأنا أقرب الكأس من أخي وأضع كأسي أمامي حتى ألفتَ انتباهه ليبدأ في الكلام.

لكن طال أمد الصمت حتى كاد يكون أبديًّا، واشرأب عنق القلق واستطال، وطفقتُ أسكّن نفسا طارت في كل صوب، ولا أجد ما أعلّلها به وأحسست بحَرارة تغزو وجهي ثم رأسي ثم باقي جسدي، وما هي إلا أن أحسست بالعرق تحت إبطي ينزل قطرات: يا إلهي متى ينطق؟

رفعت رأسي لأنظر في وجهه لعلي أومئ له بأن يتكلم، إذا به مطأطئ رأسه في خشوع لم يظهر عليه حتى في الصلاة!! وبعد رشفات من الشاي بللت بها ريقي الذي يجف أسرع من ماء على صخرة صماء في حر شديد، قررت أن أُنهي ثقل هذا الإحراج الذي تقاسمناه وبدا على وجه المرأة، لكن كرم الضيافة وحياء المرأة حتَّما عليها أن تترك قرارا كهذا لنا، فقلت:

- سيدتي، نعتذر عن هذه الزيارة المفاجئة، ونستسمحكم عن هذا الإزعاج!

- لا عليكما، ليس في الأمر إزعاج أنتما ضيفنا وحقٌّ علينا إكرامكما.

قاطعتْ لباقتي بابتسامة أجهزت على المتبقي من شجاعتي، وأوقفت تسرعي لإنقاذ الموقف فما زدت على أن قلت:

- جزاكم الله خيرا.

هل أقول جينا لنخطب بنتكم؟ وهل أجرؤ على أن أنبس ببنت شفة؟ بقيت مفحما كأنما ألقَمتْ فمي حجرا لا أدري أأرميه؟ أم أحتفظ به احتراما لها؟

يا لها من أُسرة؟ جئناهنَّ وقد استخففنا بشأنهن لكونهن نسوة وقلنا ستكون مهمتنا سهلة إذا بنَا أمام جبروت وقارهن نرتعد كأطفال ارتكبوا حماقات فارتبكوا. وَذاك المسكين الذي جئت مستشفعا به أصابه الخور ودخله الصَّغار كأنما أتى أمرا جرَّ عليه الخِزْي والعار.

- تفضَّلا! أصيبا من مأدُبتنا.

- شكرا وزادكم الله فضلًا.. جينا وقد عرفنا أنكم أهل كرم وأننا نطمع في القرب منكم أكثر.

- زادكما الله قربا لن ترجعا إلا مكْرمين، ولن نرد لكما طلبا نقدر على تلبيته.

- اليوم أتينا للتعرف عليكم وسنخبركم بطلبنا في زيارة مقبلة ونشكركم على الحفاوة التي أتحفتمونا بها.

لا أدري كيف انطلق لساني من عقاله، ولا أعرف إلا أني تركت نفسي للكلام يقودني حيث أراد، كأنما كانت تجرني من أنفي بزمام فاستسلمت لها استسلام الناقة التي تُساسُ من مناخرِها، حتى توقف الكلام وانقطع الحبل عند الشكر والامتنان، ولم يبقَ إلا أن أقوم من مقامي ويقوم الشفيع على أثري، فهب كهبيب تيس بعد رقاد، وخرجنا وقد تصببتَ عرقًا وتفسَّختَ أينا.

وبقينا نمشي مدة ابتعادنا قليلًا عن البيت فقلت من الغيظ:

- يا لجُبنك لم أكن أعرف أنك بهذا الخَور..

- اسكُتَ، اسكت!

- مغوار أنت لمَّا يتعلق الأمر بالسخرية بي!

دعوتك للجُلَّى لتنصرني

وأنت تخذلني في الحادث الجللِ

قهرتْك جيوشهن وأخرستْ لسانك، وبقيت لا يدًا ولا رجلًا ولا فما. ثم أتبعت كلامي بضحكة انتقاما منه، فرد وهو لا يزال في خشوعه وإصراره على إسكاتي:

- ألا تسكت؟! وهل قلت شيئًا أنت؟ أجئت لتخطب أم للتعارف؟ أتحسب بيوت الناس مفتوحة لذلك؟

- الحمد لله الذي فكَّ لسانك الآن! ورد لك جرأتك، كنت ظننت أني فقدتها للأبد.

- سخيف وثقيل!

- والله لو لم يكن من ظُرفي اليوم إلا اكتشاف عُقَدكْ لكان كافيًا أن أكون خفيف الظل على أهل الأرض كلهم.

- تبا لك! أهذا جزائي أني قبلت مرافقتك؟ والله.. وأراد أن يحلف على أمر فخفت من قسمه فقاطعته:

- والله لا تكمل! تحمَّلتَ كثيرا سخريتك واستهزاءك، ألا تسمح وأنت الكريم السخي في مروءته أن أعتلي منصة التهكم اليوم.

- انزع يدك عن فمي! وكفَّ خبثك.

فسكتُّ لكن ليس نزولًا عند طلبه، إنما داخلني أمور جديدة وقلت في نفسي:

يبدو أن في الأمر شيئًا! ولا بد أن أعرفه!

مضينا في طريقنا وقد كبحت لساني الجموح عنه، وكَفَفْتَ ما زاد من كلام كنت أدَّخرُه له حذارَ أن يخرم ما بيننا من أخوَّة، وأن يتبزَّل ما بيننا من صداقة، وتتسَلل إليه الضغينة، ووجدت في تكرار شريط حدث اليوم مشغلة وملهاة لي عن الاسترسال في إغاظته.

يا له من يوم عصيب عصبصب. أنفقتُ فيه مَدَّخراتي من الأعصاب، وقد حان الوقت أن أسترجع أنفاسي وأستريح في فسحة التذكر، وأعيد كل لقطة حصلت، وأكررها وأحللها تحليلًا مخبريا، وأترجم شفراتها من لغة العيون إلى لغة القلوب. أحتاج إلى هذا التحليل الكامل الشامل كي يعينني لأخذ القرار النهائي.

أقول النهائي مع علمي التام أن الزواج مغامرة بكل المقاييس وتجارة مخاطر يكون الربح فيها عظيما أو الخسارة فادحة.

ليس سهلًا أن تخسر جزءا من عمرك وتمضي سنوات من أيامك المعدودة تذروها رياح الندم وتعصرها حسرات على ما فات.

وليس قليلًا أن تربح سكينة دائمة في قلبك، ومودة مثْرية لبيتك، ورحمة متبادلة بينك وبين من تحب.

ومن ثَمَّ علي أن أتَّكل فقط على غلبة الظن أو ميل القلب، أو حدس يلمع من عقلي الباطن، أو فراسة تنقشع وسط هذا الركام الهائل من الاحتمالات، والظنون، والأوهام، والمعطيات.

وصلنا إلى البيت في وقت قياسي لا أدري أحملنا عفريت سليمان، أم طُويت لنا الأرض طيًّا، أم أن التفكير أدخل كل واحد منا في قوقعة جعلته خارج الزمن، فلم نشعر بمروره إلا ونحن ندفع باب بيتنا على أن الشقة بيننا وبين مضيفينا ليست بعيدة.

دخلنا وكأننا أوينا إلى ركن شديد، فارّين من زحفٍ لا قِبل لنا به.

- هل يمكنني أن أعرف من أين نزلتْ عليك تلك السكينة؟

- لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسؤْكم!

- وما الذي يسوء في أن أعرف ما ألجمك الصمت في موضع الكلام؟

- سأقيل الآن فدعني لقيلولتي.

- ويحك! تتركني في حيرتي وتنام؟!

- لن أنام. سأقيل فلا تُكثر الثرثرة أرجوك! رأسي لم يعد يتحمل إلحاحك.

أسررتها في نفسي وطويت كشحا عن سؤاله، واتكأت في مضجعي وبدأت أقلب أوراق دفاتري إلى أن وصلت إلى الصفحات المشرقة التي أنارت شوارع صدري المظلمة.

كانت اليوم صفحتان، صفحة عن اليمين وصفحة عن الشمال، صفحة فيها ضوء ونور وأخرى فيها بريق ولمعان، أنظر إليهما بتمهُّل من غير أن تحرجني النظرات ولا أن تربكني الابتسامات.

اليوم سأحدد من تدخل قفصي الذهبي.

أنا مرتاح في مكاني، كجندي عاد إلى ثكنة أو خندق، وعدت بالزمن بحيث أنظر إلى الصورتَين اللتين انطبعتا في ذهني وعلقتا بخاطري فلم تغادراه.

اختلط العشق عليَّ.. هل أُلقي مودتي لتلك التي ضربت بجرانها على قلبي، وحطمت حمرة حيائها زجاج جرأتي؟ أم لتلك التي غرقتَ في بحرها أياما ولياليَ من غير أن أتبيَّن ملامحها؟

لاحظت أني أحاول أن أتباطأ، ليس من أجل أخذ القرار لكن من أجل أن أسرح فكري في الآفاق البديعة التي تظهر معترضة لي وأتجوَّل

في بساتين الجمال التي أينعت خضرتها بقربي، ألوان من الورود الحمراء والبيضاء والصفراء والبنفسجية والقرمزية، وأطياف من قوس قُزح أخذت مجامع قلبي.

يا ربّ أعوذ بك أن أغرق في بحر تردد لا قاعَ له، أو أن أتيهَ في بيداء الأسئلة التي تتشعب في كل اتجاه، أو أن أحار عند مفترق طرق الاختيار.

حسبتُ الأمر قُتل مع بداية الصباح لكن تبخر التحديد، وجارت بي العواطف بين شَوق لتلك وعشقٍ لهذه، بين صورة وضحت ونشبت أظفارها بعقلي، وصورة تمكنت جذورها من قلبي.

عليَّ مرة أخرى أن أحدد الي أي جهة تميل بوصلتي: إلى جهة قلبي التائه أم جهة عقلي المتردد.

الخطب ليس يسيرا. وكيف يكون كذلك وقد جعلت نفسي بين المطرقة والسندان.

كُتب عليَّ أن أقرر بدلَ من لهما القرار، ومن إليهما الملجأ والفرار، حين يضطرب الاختيار.

لا سبيل إلى ذلك إلا بحَكَمٍ عدل، لا يجور لرغبة، ولا يحيف لرهبة.

أعترف أنني أنا أيضًا لم أرِد الحسم في الأمر لأَنّي أحببت أن أطيل عمر الانتظار، كي أحافظ على حقي في الاختيار، انتابني نوع أنانية مفرطة، وحب تملك طفولي، وغَيرة لا مبرر لها من أخي الذي ظننت أنه وقع في حب إحداهما، وخشيت أن يكون سبقني إلى التي أريد، لكن لماذا استجار بالصمت؟

هل ينتظر حتى يعلم مهوى فوادي.

بدأ شكي في أمره يعظم، ويعظم معه تعلقي بالفتاتين..

يا له من حمق لا دواء له.

صبيانية لا زمام لها ولا خطام،

تحكّم لا معنى له، وسفاهة جعلت أبررها بكل ما أُوتيت من بلاغة، وتعليلات أقل ما يقال فيها علالة يستمسك بها الطفل بشدة لا يقبل بغيرها ولا بأحسن منها هي فقط.

معرَّة كانت تبدو لي وراء ذلك، وسُبَّة أحاول أن أغطّيها، ولكنها تظهر صارخة في وجهي: ويحك! ويحك، وأنا أضع فيَ فمها تلكم التعليلات التي لا مساغ لها لكي أُسكتَها ولا تفضحني أمام نفسي.

لم أقدّر مدة تطوافي ولا مقدار جولاتي حتى رأيت الأخ العاشق يقوم من قيَلولته، حسبتني بقيت دهرا، أو حسبته ذهب في سبات عميق لم أشبهه إلا بنوم أهل الكهف، لولا أن أذان الظهر سبقني إليه فنجا من نبال أسئلتي التي في حواشيها ريش من سوء الظن.

دخلنا نفق الصمت معا ورجعنا منه فلم يزل ساكنا ساكتا ويمشي مطمئنًا يذكر الله خفية كأن شيطانه يوحي إليه أو أن جنّيته تهتف في أذنه.

- هل ستتكلم يوما ما؟

- إنها لا تصلح لك.

- ماذا تقول؟

- اصرف اهتمامك إلى غيرها، وأنا مستعد أن أساعدك فيما تذهب إليه.

- أصرف نظري؟ عمَّن؟ عن سراب أم عن أحلام؟ أتراك...

- كلاهما لا تصلح لك. لا تتعب نفسك لا خيار لك.

- أنت تهذي... والله لن...

- لا تجعل الله عرضة ليمين لا قبل لك بها.

- تريدها لنفسك؟؟ ألا تستحي؟ تريد أن أصرف نظري ليخلو لك الجو...

- لا تتسرع في الإساءة! الفتاتان لا تصلحان، لا لك ولا لي.

- ماذا تقول؟ فسِّر مقالك!! أتريد أن تقضي عليَّ!

- أعرف الفتاتين من زمن بعيد لما كنتَ أنت طفلًا وكانتا طفلتين. كانت جدتهما تقول لي أنها أرضعتنا أو نحن أبناؤها من الرضاعة.

- رضاعة؟!! جدتهما؟

يا إلهي ما للأرض تدور هكذا؟

وما لرجليَّ لم تعودا تقدران على حملي؟

ليته لم يقل شيئًا حتى نبلغ مأوانا، ليتني ما سألته.. ليتني.

- ما لك جلست؟! ألم تصدق قولي أم تراك ثقل عليك الخبر؟

- اذهب، سألحق بك.

هل كفَّت الأرض عن الدوران؟

أم هل توقف الزمن عن السريان؟

طال ذلك الجلوس على صخرة في الطريق، طال واستطال وتمدد وتمطط لم أعرف له حركة، ولم أعهد له ثقلًا مثل هذه اللحظة!

هل حانت ساعة الموت؟

لماذا أشعر وكأن الجبال على صدري؟

لِمَ أحسُّ أن الفضاء الفسيح يشدد الخناق علي؟

لم أقدر على حركة، ولم ترمش عيني، ولم أُطقْ نفَسا وكأن محركات رئتي تعطلت، وأن القلب لم يعد يضخ دما، وما جدوى كل ذلك؟

ما فائدة أن ينبض القلب بدون حب؟

وكيف سيضخ الدم وقد تغيرت دواليب الحياة فيه،

ينبض لمن؟ ويخفق لم؟

آه، يا من تَحدَّث عن ضياع الحب قبلي فلْتسكت، لم تذُق من حسراته شيئا. ويا من قال في الهجران والفراق وعانى منه، تعالَ أحدثك عن موت إكلينيكي للحب.

تعال أخبرك عن الحب المصاب بالسكتة، وأصف لك كيف تصير اللحيظة دهورا سحيقة، وسعة السماوات تصير ثقبا صغيرا أتنفس منه وأكابد إيصال الهواء إلى صدري المضغوط.

آه وهل أملك الآه؟

ما لي لا أقدر على البكاء والنشيج؟

ما لي لا أستطيع الصراخ؟

دثّروني فقد ثقل الحب عليَّ!

وأن جبيني ليتفصد عرقًا ما بين حرارة الأشواق وبرودة الخبر، هل صرتَ نبيَّ المحبين، أم أنا مسيلمة العشاق، أم هو هذيان السكارى وهلوسات المجانين!

إن كان رأى الحب سكارى مثلي فقد ملأ عينه وشنف سمعه، وما زلت في السكرة الأولى.

إن للصدمة لسكرات!

كلما قلت انجلت.. تمادت، لم أشعر بوجع في القلب قطُّ أشد منه ولم أتنفس قنوطًا أثقل من لحظتي تلك حتى صحت: يا رحمةَ الله أين أنت؟

ثم، التفتُّ من غير أن أتحرك، تحرك قلبي حركة كأنه يقول هي، هي رحمة الله، واستعبرت باكيا وسال الدمع مغزارا، وجرى الدم في قلبي، وتحركت رئتي حركة ثقيلة طويلة، بشهيق عميق كمن يعود إلى الحياة بعد غيبوبة موت محقَّق.

وتنهيدة تتلوها تنهيدة..

رأيتها من بعيد كسراب وليست سرابا، أكاد أتبيَّن مشيتها من عينين غارقتين وسط بحر الدموع، رآها القلب قبل العين، فنبت العشب عند قدمي، وأينعت الأوراق في الشجيرات الصغيرة المحيطة بي وأزهرت ورودها، وابتلت الصخرة من الندى وتحركت أسارير وجهي، وانبثق فجر جديد للأمل، وها أنا ذا أرى عصافير ترفرف وتزقزق، والحياة تدبُّ في كل الأشياء، وعادت الأرض إلى فلَكها.

إنه الحب يا سادة، انقشع من جديد كشمس ساطعة لحظة الشروق، إنها أحلام!

أدركت حينها سرَّ عودة الحياة في الموات من حولي، وشعرت بدبيب الروح في جسدي، وبُعثتُ مرة أخرى، وأرسل القلب إشارة الحياة ودما كافيا لاحمرار خديَّ.

ها هي تمر كطيف سريع أخف على القلب من النسيم العليل.

ما أسرع ما يُجاب من ينادي رحمة الله، إني أراها أمام عيني تمشي على استحياء بذات الخمار ذات السفعة على الخدَّين.

الحُسن تدثَّل بالحجاب، والجمال توشَّح بالخمار، والحياء تحالف والوقار. وأنا هناك مثل عَبَّاد الشمس يتبع شعاعها ويتملَّى برونقها،

أستغفر الله! عادت بنعم الله كل أشكال الحياة، وعاد العقل إلى مكانه واستقر بعدما تشتت في بيداء الحيرة؛ إنك أُمرتَ بالغض من بصرك فاستحِ كما استحتْ وغضَّ من بصرك ولا تُتبعَ نفسك هواهَا... كيف وهي منذ قدم العالم من محارمك... بهذا بقيت أحدّث نفسي:

هل أوقفها الآن وأخبرها أني من أهلها، وأنها قريبة كقرب النسب؟

رباه كيف أخبرها أني خالها من الرضاعة؟

وكيف ستستقبل الخبر؟

وإذا حصل لها ما حصل لي أو أشد فأتسبب في قتلها، وهل أطيق إخبارها؟

اكتفيت بالنظر إليها وهي تبتعد كغروب الشمس في اتجاه بيت جدتها؛ أو قل أمي من الرضاعة.

الآن صارت رحمًا يجب أن توصل وأُمًّا لزمني برُّها.

- أما زلت هناك؟ تعالَ أيها المتيم.

سمعت صوت أخي، كأني أسمعه لأول مرة وهو يناديني من بعيد، فنهضت ومشيت الهوينى، أو مِشية من يتعلَّم المشي ويطيقه بشدة، فتحاملت وتجلدت وأبديت شيئا من القوة مخافةَ الشماتة والسخرية، وتجنبا لكلام قد يقضي عليَّ وأنا مثخن في جراحي.

ووصلت إلى البيت وقد دخل أخي وأعد أكلًا وبقيت أنظر إلى بيتنا المتواضع كأني أراه اليوم ولأول مرة، واكتشفت ما فيه وأدركت أني لم أجلس في مكاني ذلك إلا سويعة ريثما أعد أخي مائدة الغذاء، وأنا حسبت أني غبت عن المكان من الشتاء الماضي وجزءا من الربيع، ثم بادرني:

- أريد أن أخبرك شيئًا! فوطِّنْ نفسك على الصبر ودعني أُفصِّل كلامي.

- لن تقول شيئًا أشدَّ عليَّ مما قلتَ.

- طيب دعني أخبرك وأنصت.

- قل ما تشاء.

- أولًا أنا أعتذر عن تلك الصدمة التي أحدثت لك فقد رأيت وقعها عليك... لم أكن أتوقع أنك مرهف إلى ذلك الحد، في الحقيقة كان قصدي شيئا آخر لكن تبيَّن لي أن لا جدوى من تزوير الحقائق..

- تزوير؟؟!!

- قد أخبرتك بشيء ليس هو الحقيقة كاملة، أنت لم ترضع من الجدة!

- ماذا؟ أكمل.

- نعم قلت أرضعتنا، وكنت أقصد نفسي أما أنت فكنت لم تولد بعد، وأردت أن أقول ذلك لأصرفَك عن تضييع وقتك وتتفرغ لدراستك التي ضيعتها بين حبٍّ فاشل وتجارة كاسدة.. لكن صعب عليَّ منظرك وأنا أراك من بعيدٍ وصعب عليَّ أن تكون كذبة تقضي على مشاعر طيبة فيك وفيها.

لم أجد ما أقول له وبقيت أنظر إليه ثم تابع:

- والآن سنأكل وإن شئت تحدثنا عن موعد آخر نذهب لخطبتها....

حرت بين مشاعر الغضب والغيظ والفرح والخيبة واليأس والقنوط وخرجت من البيت أردت أن أجري، وأطير، وأقفز، وأتمرَّغ،

وأتشقلب بين الأعشاب، في مكان فسيح أفسح من الأمل الذي فُتح أمامي؛ وقلت له: – لا حاجة لي في أكلك، ما زالت عصافير بطني لم تزقزق بعد...

إنما زقزقت عصافير قلبي وحلقت ودارت وغردت وأطلقت أجنحتها للريح في الفضاء الفسيح.

في عينيَّ ماء، ليس دمع حزن، بل ندى من الفرح النازل في ليل ذلك اليأس الذي كان طويلًا ممتدًا سرمديًّا لكن تقلص فجأة..

هل الحقائق لها وقع على الزمن؟ وهل التزوير يمطط الثواني يجعلها أيامًا، والأوقات يجعلها أعوامًا، قد رأيت بأمِّ عيني كيف يتوقف الزمن!

بمجرد كذبة غير مقصودة، كانت كثقب أسود ضاع فيه كل شيء، فذاب وتباطأ العمر حتى رأيت تلك اللحيظة هي كل حياتي، وكأن قلبي ليس قلبًا، إنما هو آلة صدئة قديمة قدم الأزل، وشرايينه قد تعبت بعد دهر سحيق، والدم فقد كل شيء إلا لمعانه. تجمَّد في جليد أبدي، لا يرى أن له ذوبانًا وشيكًا!

وبمجرد الصدع بالحقيقة تبخَّر كل شيء، ودارت الأوقات كما تدور الساعة،

وسمعت هدير الدماء في عروقي، وصبيب الهواء في رئتي،

وذاب ذلك الماء الذي كان في عيني فتحركتا في محجريهما تجوبان الفضاء وتتمليان باتساعه.

نعم.. وعادت للحيرة لذتها، وللتفكر قيمته، وعادت المعاناة هي من تتحكم في تمييع الزمن أو تفكيكه، أدركتَ حينها أن المصائب كلها خير، وما الأذى الذي نلعقه إلا امتحان مرور، أو معراجا إلى مرتبة عَليا.

وأدركتَ أيضًا أن ليس هناك زمن، وإنما توهمناه، فاخترعنا له آلة تحسب دقائق الحركة، وثواني التقلبات، وقد يتغير الكون في الفيمتو ثانية أو أقل، بتحرك فراشة في مكان في الأزل، نعم، أصبح الزمن علالة في نظري، بعد أن كنت داخل بوتقته.

كانت تلك الحقيقة كفيلة بأن أخرج من ضبطه لي إلى مراقبتي له، وكأنني خارج الظرف متنصّل من دورانه أتابعه كما يتابع أحدنا قطارا أو قطارات من نافذته تروَح وتذهب.

ربما أبدو متفلسفًا فاشلًا، فأقول إني لست متفلسفًا أصلًا، لكن أردت أن أجمع كل معنى يمكن أن أصف به وقْع تلك اللحظة على صدري، وجرس تلك الحقيقة على قلبي، والتي دامت في ميزان

عقارب الساعة أقل مما بين الظهر والعصر، لكني ظننت أني سافرت فيها في مكوك لا زماني، لا يحسب أبعاد الكون إلا أمتارا وأذرعًا، وعدت إلى الأرض فوجدتها كما هي،

وما أصابني على طول الرحلة جوع ولا عطش، لكن حفرة كانت في القلب صغيرة وفراغًا كان ضئيلًا بدأ بفعل عودة الدماء ودوران الحركة يكبر ويتسع حتى أصبح أوسع من الهم، وأضيع من الوهم،

فراغ يسميه الشعراء شوقًا، ويسميه غيرهم حنينًا وغراما، وأنا لم أهتم بتسمية ما أجد، الكلام نسبي إلى الإحساس المطلق، ولم توضع له بعد كلمة توفّي حقه!

إنه حيّز في القلب لا يملؤه غيرها، حيز مكيَّف بحسبها،

ومُهندَس على جرمها، مثل بُرغي وصامولة، بدأت الدوامة تجذبني إلى دخول معترك الزمن من جديد، وأراها الآن تدور بقربي بقوة مروحة عظيمة لا قبل لي بها، تدور بأسئلة نقَّاثة، وأجوبة طاردة.. من يا ترى صاحبة الحيز؟

أحلام؟ أم سراب؟!

وفجأة شعرتُ أني أتدلل، بعد أن كنت عظيم اليأس، مقطوع الرجاء، لا أطمع في رائحة أمل من إحداهما، أجدني مجذوب الطرفَين بقوة

متكافئة، حقيقة هذا هو الدلال! دلال الاختيار وصعوبة الحسم في هوى قلب.

إنه سيف الساموراي البتَّار، الذي يقطع إذا قررتَ، وتتبخر بعده كل أمنية في العودة إلى الوراء، لكن لا بد مما ليس منه بد.

عند الاختيار تظهر ميزة العقل، فقانون المفاضلة لا بد أن يحكم لأحد الطرفين، لكن هل أملك الاختيار فعلًا بين قلب يميل بكل أثقاله يمينًا، وعقل يحاول أن يتوازن ... لا شكَّ أن هذا ظُلم!

لو أن عقلي يكون في الطرف الآخر لاعتدلت القضية، لكن العقل يبقى يراوح بين الأثقال في جهة وبين اعتدال الإبرة في الوسط، وإذا ترنَّح جهة اليمين لم يكن عقلًا وصار هوى مضادًا..

هل أميل مع قلبي لسراب؟

أم للعقل حكمه الأخير والذي سيحكم به لصالح إحداهما.

سراب التي جنَّحتْ شغاف القلب أول مرة، لا تزال صورها تتراءى أمامي، تتراقص في حديقة غنَّاء من ذهني، أراها هناك بجانب وردة، وأرى أناملها تمتد إليها فأتيه بين غيوم العشق، وأضيع في فيافي الحب، وأحاول أن أصف بالحروف ما تراه العين والقلب فتهرب الحروف، وتتقهقر الكلمات عما تراه، تجلُّ عنه ويدق عنها، وأراها هناك

جالسة في شرفة بيت جدتها تقرأ كتيبا صغيرا وتعبث بشعرها من حين لآخر فأكاد أطير، مثل الطائر الطنَّان الذي يتنقل بين وردة وأخرى، أراها ليلًا وراء النافذة تمشي وتجيء كأنها تمشي على أطراف قلبي، لا أرى إلا خيالًا لكن القلب ملأ الخيال وكساه وزاده من إضافاته، سرُّ تحكّمها في قلبي أنها أول من طرقه خاليا، وضربت خيمتها به ودقت الأوتاد عند كل وتين، فمن يزحزحها، وأي ريح تحركها وقد اختلطت بالشغاف والبطينين وتمددت في صميمه، تجري مع الدماء وتسبب الدقات والخفقان، أما أحلام فشيء آخر ...

أراها جيشًا مدججا بالأدلة المقنعة، ترسانة من النظرات الحازمة وراء جدار عال من البرقع الذي زاده الحياء علوًّا حتى خلتها برجا من أبراج مدينةً الأحلام..

صوت قوي، كلما تكلمت يدق كل حرف مسمارا بأعشار قلبي ويهز فرائصي، وكأنها تقلقل الحرف على أبواب الشرايين، ترعبني بجبروت الصمت، وسهام متقاطرة من النظرات على استحياء، ليس فيها إغراء ولا إغواء!! نظرات امرأة كاملة، تنطوي على أنوثة في أبلغ مستوياتها، تجتهد في إخفاء صوتها، كأنما تتكلم بالضروري فقط، لا تتلعثم في ضعف، ولا يسبقها حرف، ولا تسقط لها كلمة..

لا تتنحنح ولا تترنح، كيف لي أن أقوم عنها، ترسانة كاملة وجاهزة لدك أكبر المعاقل فكيف بقلب يرتجف تحت القصف المتوالي، ولأول قذيفة تسقط بعيداً من تهديد يتهاوى،

لا حلَّ يقترح، لا حذف خيار، ولا مشاورة جمهور ولا اتصال بصديق..

فلتلك محاميها وهو القلب، ولهذي محاميها وهو العقل...

وأنا بينهما متردد كموجات صوتية بين حاجزين، لا تكاد ترتطم بأحدهما حتى ترجع إلى الآخر، ولا يبدو لها مستقر وشيك، ولا توقف محتمل، وأصبحت كقاضٍ استوت عنده الحيثيات والقرائن ويحاول أن يؤجل البتَّ في الحكم لعدم كفاية الأدلة ...

دفعتني الحيرة وحب القطع والحزم إلى أن أبحث عن حَكَم، لم أُجب داعي الجوع الذي كانت أجراسه تقرع في معدتي، ولم أكترث لقرقرة أمعائي التي لما عادت الحياة إليَّ أرادت أن تستعيد حركتها وتدير آليتها، كان هناك داعٍ آخر ناداني من بعيد بعداً زمنيًّا في نفسي، كاد ألا يصل إلى سمعي لعظم تلك الطبقات التي حالت بيني وبينه، أطباق سماوات من القنوط وقفت حاجزا منيعا ضد صوت على بعد دقائق مشيا، ثم تنبهت أنه علي أن أجيب نداء أذان المغرب، ومن ثَم أهرب من ذلك القرِ الذي بدأ يتسلل إلى عظامي، برد ليس فيه ريح لكنه

قارس، وكأن الشمس التي ودعت منذ قليل لم ترسل أشعتها بحرارة ولا تركت بقية دفء، وإنما انسحبت مجرجرة وراءها لباس الإشراق والإحراق، وأبقت رمادا من الصقيع لا يستأذن في الدخول إلى الأحشاء، والتحكم في الأطراف.

دخلت المسجد وكأنني أدخله لأول مرة أيضا، انتابتني أحاسيس كثيرة، أولها الحياء حتى تضاءلت في ذلك المكان وانكمش جسمي وأنا أجلس أنتظر الإقامة، لكن روحي أرادت الانتشار والانطلاق، شعرت بأن هذا مكانها المفضل، الذي يوفر لها قدرا كافيا من الأمان لتشعر بالاطمئنان، ويهدي لها راحة تساعدها في الخروج من كل المضايق، وربما تعوّل ألا تخرج من هناك إلا والقرار في يدها، والحسم في القضية لن يكون إلا بين هذه الجدران.

صلينا المغرب وبعد التسبيح والذكر بقيت جالسا أفكر والناس قليل ما بين مصلٍ وذاكر، وآخر يفتح جواله، وآخر يقترب من صديق يتحادثان بصوت منخفض، ورفعت رأسي ورأيت أن الإمام لا يزال في محرابه جالسا يستعد مع بعض الطلبة الذين تحلّقوا حوله لكي يبدأ معهم في الحزب الراتب فنظر إليَّ وأشار لي أن أقترب كي أنضم إلى الحلقة فاستحييت على ما بي أن أعتذر وأنصرف فأقبلت نحو الحلقة

فوسَّع لي بين اثنين وناولني مصحفًا، وأنا لم أحقق في وجهه حتى قال تفضل وابتسم فعرفته.

إنه إمام كنت أعرفه من زمن الطفولة لما كنت في الكُتَّاب، وكنا نحفظ على يديه أيام العطل المدرسية. كنا نناديه سيدي عبد المومن.

ابتسمت له وصافحته ودار بيننا حوار قصير لتعذر الاسترسال.

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام ورحمة الله.
- كيف الحال؟ بخير؟
- الحمد لله، بارك الله فيك.

ثم أخذت المصحف من يده وأشار لي بالجلوس، فجلست وانطلق هو بصوت جميل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، {وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد...} ثم تبعه الطلبة والحاضرون كلهم على صوت واحد والآية تتجلجل في رأسي كأني أصعق بها وأفيق، إنها رسالة لي واضحة لا لبس فيها، هذا الهوى أخذني بعيدًا وأدخلني في فيافي رمال متحركة،

أحاول أن أرفع قدما إذا بالأخرى تسوخ،

والمصيبة أني غير شاعر بعظم المصيدة، وخطورة المطب،

وتذكرت في تلك اللحظة كيف كانت البدايات، خطوة خطوة، وفي كل مرحلة أقول لنفسي مطَمئنا: لا خوفَ عليَّ..

أنا الآن في مرحلة الخوف، وأشعر وأنا أتابع القراءة مع الجماعة أني وسطهم صوتٌ نشاز، وكأني عارٍ وسط مستورين، أو متسخا وسط أنقياء.. كان الحرج شديدا، والحياء والخجل يتبادلان النظرات إلي ويصفعاني من حين لآخر وكأن العالم كله اكتشف فضائحي.

لم أملك أن أقرأ مثلهم بصوت مرتفع، لأن حنجرتي أصابها تكلُّس مفاجئ، وبقيت أتابع بعيني ولساني بما يملك من ريق، وأحسست كأن القراءة طالت والعرق يتصبب مني وكأني أنتظر الحكم بالإعدام بعد انتهاء القراءة، فلما وصلنا إلى الآية الكريمة {ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة..} أدركت أننا قربنا على ختم المجلس فبدأ التوتر يقل وعادت الراحة التي افتقدتها لدقائق وهدأ الرَّوع وعاد القلب إلى مكانه.

أنهينا القراءة وبعد الدعاء انفضَّ الناس، وأرجع من كان له مصحفًا إلى الرفوف وبقيت جالسا مستمتعا بلحظة صمت روحية سبقها استغفار وأوبة، وإذا بالإمام يقترب مني ثم يعاود مد يده لمصافحتي فمددت يدي وجلس بجانبي ليكمل الحوار الذي بدأناه:

- منذ زمن لم أرك، هل منع مانع، أم تصلي في مكان آخر؟

أدركت حينها وهو يسأل ذلك السؤال أني مشيت بعيدًا حتى وصلت المسجد العتيق كأن القدر ساقني هناك فأجبت.

- نحن نسكن الآن في الحي المحاذي لورطاس وأصلي هناك في مسجد قريب، ولكن أحيانًا تشغلنا الدراسة والعمل، والكسل أيضًا له حظ كبير.

- الله المستعان، والموفّق لكل خير.

- سبحانه.

- يبدو أنك مهموم قليلًا أو بك علة؟

كان سؤاله مثل وخزة في مكان مؤلم، حركت ما كان خمد في تلك اللحظات المباركة، فلم أدر ما أجيبه به سريعًا سوى قولي له: (لا، ولله الحمد ليس بي علة، ولكن لما مشيت كثيرا عرقت فأنا على الحال الذي ترى)، ثُم عنَّ لي أن أسأله مسألة وهو عندي محل ثقة، ففكرت في تعويم سؤالي وصوغه صياغة أُعَمّي بها عن قصتي وكأن الأمر فلسفي فكري فقلت مع بعض التردد:

- شيخنا، عندي سؤال كثيرا ما حيرني وحيَّر شريحة عريضة من أمثالي هل أجد عند وقتا لأطرحه وتجيبني؟

- تفضل، إذا أمكنني أن أعطيك جوابا شافيا فلن أبخل به.

- سؤالي هو كالتالي (إذا تعارضت اختياراتنا وأهواؤنا مع ما تُمليه علينا العقول ووجدنا لكل طرف ما يسنده من حجج، القلب يأمر، والعقل ينهى ويحذر، القلب يهوى والعقل يقف محايدًا دون أي قرار مقنع أحيانا، وأحيانا نحس أن العقل له نصيب من الصواب لكن ليس له الحجَّة الكافية. كيف ترى هذا الأمر؟

- تريد حكَما بين العقل والقلب؟ أتعرف الحكَم الوحيد الذي يقنع الاثنين؟ أو يوقفهما في منصة الخصومة على قدم المساواة، ويحكم عليهما دون أن يكون منه تجاوز أو ظلم؟

- لا، وقد شوقتني لأن أعرف هذه السلطة التي تعتلي فوق العقل والقلب معا.

- إنه الوحي!

- الوحي...؟

- نعم، العقل ميزان، أي له كفتان، وعيبه أنك أنت من يملأ هاتين الكفتين بما تشاء، لهذا يحكم بما في الكفتين بالعدل..

أمَّا القلب فهو متقلّب كاسمه، ودوره أن يملأ لك الكفة التي تريد أنت، ولذلك اعرض ما في الكفتين على الوحي، وثق بالعقل بعد ذلك، وراقب إرادتك هل هي موافقة للوحي أم لا؟ أي اطرح السؤال على نفسك: ماذا أريد؟ وهل الله راضٍ عما أريد؟

- فهمت.

- اجعل هواك تبعا لما جاء به الوحي ستجد العقل يحكم بالإنصاف وتجد قلبك مرتاحا راضيا.

- يعني القناعة والتسليم والرضى بالتقسيم.

- بالضبط.

أنهينا تلك المحادثة الخفيفة، فاستأذنت في الذهاب، لأن الشقة بعيد، والظلام يستعد بأغطيته السوداء، والبرد متابع نزول درجاته نحو الصفر أو قريب منه، فاستحثت الخطى وأنا أطوي الطريق بمعارك طاحنة بين أفكاري ومبارزات بالسيوف والمطارق في رأسي، وأتخيل العقل واقفًا شامخًا حاملًا مطرقة عظيمة ودرقة، والقلب توشح سيفًا

بتارا لكنه يرتجف من الخوف إلا أنه جمع حاشية قوية تسنده وتقوي هجمته.

وكأن المبارزة تحدث في ساحة من ساحات الرومان، والوحي جالس في شرفة يراقب لمن الغلبة، فقلت في نفسي: لماذا يعطيهما الحرية للتقاتل؟ لم لا يحكم بوقف المعركة لصالح أحدهما، وينتظر أن يقضي أحدهما على الآخر؟ لم لا يقول للقلب وأعوانه: توقفوا عن مساندته إنه ظالم إذا كان يراه ظالمًا؟ ولمَ لا يقول أيضًا للعقل: أنت معتد؟ ميزانك مغشوش... فكرت وفكرت وعرفت مدى الصلاحيات التي أُعطيت لي كي أقرر بنفسي وأقرر القرار الذي ينجيني.

أنا من أختار، بين الجنة والنار، ولا واسطة بينهما ولا فرار.

اقتربت من الحي وسمعت أذان مسجدنا للعشاء فسكنت المعارك، وألقيت السيوف، وأعلنت الهدنة..

ونزلت السكينة فلا أسمع إلا خشخشات قدمي في الدرب المظلم أو خطوات المصلين أو همهماتهم متجهين إلى نفس المسجد.

كانت غفوة... بين سراب وأحلام، ثم صارت صحوة.

تمّت الحمد لله

روابط مهمّة لكل كاتب، ستساعدك على تنمية مهاراتك الكتابية.

شروط النشر في دار بسمة للنشر الإلكتروني

اشترك في النشرة البريدية الآن

اسأل سؤالك هنا

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايين من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَة والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.َ

أحلام وسراب

محمد يعقوبي شاعر وقاص، من مواليد سنة 1973 بمدينة بركان (المغرب). حاصل على إجازة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، شعبة الدراسات الإسلامية. له ديوان شعري قيد النشر الإلكتروني، وأعمال أدبية أخرى تنتظر موعد الخروج إلى القرّاء.

بين العقل والقلب صراع لا يهدأ، ورياح لا تكفّ، والإنسان بينهما ضائع في الاختيارات، حائر بين الأحكام ولا يجد المرجّحات. فمن يجيب عن كل تلك التساؤلات؟ ومن يلجم كل الخدع والحيل التي تأتي في صور البراهين الدامغة؟

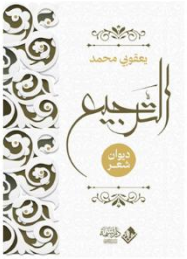

شيء ما فوق العقل...
شيء ما يقهر القلب ويروّضه...
شيء ما يرى الصراع، ولكنه يقضي
ويحكم على اختيار الإنسان.

دار بسمة للنشر الإلكتروني
Bassmabook
00212771814930
darbassma1@gmail.com